ورقلة ودورها في التجارة الدولية في العصور الوسطى

د. خلف محمد نجيب

مهد الآثار/جامعة الجزائر

ملخص:

لعبت ورقلة، في العصور الوسطى، دورا أساسيا في التجارة الدولية، وفي تطور المدينة وتوجهها العمراني، إلا أن هذا الموضوع لم يحظ باهتمام الباحثين بسبب ندرة المصادر وصعوبة الوصول إليها.

تهدف هذه الورقة إذن إلى القيام بتحقيق حول تطور النمو العمراني لورقلة في الماضي، بانتهاج المقاربة المعتمدة في دراسة تطور المدن الأوربية عبر التاريخ.

تمهيد:

إن دراسة أهمية تجارة ورقلة وتأثيرها على تطور المدينة، ومحاولة تحديد هذا الأثر في نمو وتوجه المخطط العمراني لهذا القصر على مر العصر الوسيط، يبقى أمرا مشوقا يتمنى كثير من الباحثين التمكن منه. لكننا كباحثين في العمران الإسلامي، نعرف أن هذا الأمر مازال بعيد المنال لأسباب عديدة أهمها:

1. قلة الوثائق المتعلقة بالموضوع، سواء أكانت تاريخية، جغرافية، أثرية أو في الاختصاصات الأخرى. ويرجع ذلك لكوننا في الجزائر على عكس بعض الدول المجاورة، لم نعتن بطبع وتحقيق تراثنا المخطوط الذي هو عرضه للتلف.

2. إن الكثير ممكن يملكون الوثائق المخطوطة، يكنزونها ويبعدونها عن أيدي الباحثين، الأمر الذي يسهل مهمّة عامل الزمن في إتلافها، ويحول دون استعمالها في تحقيق تاريخ المنطقة وتصحيحه.

لقد اعتمدت الدراسات الحديثة في تطور المدن وعمرانها، على المعايير الاقتصادية، لتتبع مراحل مدن أوربا الغربية ومراحل توقف هذا النمو. وسأعمل على تحقيق تاريخ النمو العمراني لهذه المدينة على هذا المنهج.

مدخل تاريخي:

إن الدين الإسلامي شرف التجارة، والفقه الإسلامي شرّع ونظم ورتب هذا العمل في أبواب أهمها باب البيع. فلا يفوت الباحث، أن مكة المكرمة، مكان منزل الوحي، وبلدة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، كانت منذ العصر الجاهلي مركزا تجاريا كبيرا في شبه جزيرة العرب (لقد مارس الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والكثير من أصحابه هذه الحرفة)، فهي أم القرى، احتوت بيت الله الحرام محج العرب في الجاهلية.

وهذه المدينة نقطة هامة، تربط بين مناطق جغرافية مختلفة، في المناخ والمنتوجات (أحمد العلي صالح، ج1، 93). فبالقرب من مكة كانت تلتقي أهم المسالك التي تربط دول العالم القديم، ومنها تنطلق القوافل الكبيرة لتنقل إنتاج الخصم لخصمه (إنتاج الفرس للبيزنطيين وإنتاج المناطق البعيدة النائية لمن يستطيع دفع أسعارها الباهظة). كما تمكن تجار المدينة من تأمين تجارتهم في المسالك الهامة (يظهر أن العديد من هذه القبائل الصحراوية كانت إباضية أو صفرية)، بربط العديد من الأحلاف مع القبائل المنتشرة في الصحاري (ZEROUKI. B, 1987) والمتمركزة في بعض الواحات، وقد ساعدهم في ذلك، أن هذه القبائل تحج إلى مكة فنجد نفسها مضطرة للوفود عليهم.

وكان لأهل مكة دراية، بالمسالك والممالك، وبعادات الشعوب، وتقاليد الملوك والأمراء. وكانوا يملكون العديد من الجمال والخيول المدربة على المسالك الصحراوية، وعلى نقل السلع، مما جعلهم يسيطرون بدون منازع على قسم وافر من تجارة المواد الفاخرة (ما غلا ثمنه وخف وزنه) حيث أصبحت هذه المهنة من أكثر المهن مساهمة في اقتصاد المدينة، ونحن إلى يومنا هذا مازلنا نجهل الكثير عن الوجه المادي لهذه المهنة (التجارة)، وعن صورة الأسواق في المدينة وأهميتها ومخططاتها، وعدد مخازنها وكيفية توزعها في المدينة، كل هذا مازال غير مدروس بالنسبة لمكة، ولورقلة، وسجلماسة (MELOUKI. M, 1985) وللعديد من المدن التجارية في العالم الإسلامي، وهنا وجب علينا طرح بعض الأسئلة الهامة، التي ستساهم لا محالة: لو تمكن الباحثون من الإجابة عنها، على إخراج جزء هام تاريخ تطور المدينة من العتمة التي يتخبط فيها وأهم هذه الأسئلة هي:

1. ما هي نسبة القيمة المضافة التي أنتجتها اليد العاملة الورقلية في التجارة العالمية، فإن كان التدخل مكثفا وكبيرا، فإنه لا محالة سيحدد لنا مدى انتشار واتساع المناطق الحرفية في مناطق الحرف في مخطط المدينة.
2. ما هو حجم السلع المصنعة في ورشات ورقلة والقرى المجاورة لها، في تجارة العبور لإفريقيا جنوب الصحراء وإلى المناطق الشمالية والشرقية من العالم الإسلامي.

إن المصادر التاريخية تتحدث عن بعض الحرفيين في المدينة، لكنها تعتني أكثر بتجارة ورقلة الدولية (MELOUKI. M, 1985) ، وتنسى أو تتناسى الدور الهام الذي كانت تقوم به طبقة الحرفيين بطوائفها المختلفة، في سند هذه التجارة. إنه من غير الوارد، عدم وجود طوائف مهنية عديدة في مدينة بأهمية ورقلة التجارية في القرون الوسطى (كم هي نسبة المشاركة لليد العاملة الحرفية لثمين للمادة الأولية (أي ما هي زيادة القيمة المضافة))، من أهل الحرف المختلفة، والمتنوعة كالبنائين والصاغة والسباكين ومحترفي صناعة الجلود

والدباغة والطباخين والحلاقين، فهم خميرة نمو المدن وصانعي الوفرة والغنى داخل أسوارها. لقد وجب القول، أن مدينة ورقلة ساهمت مساهمة كبيرة في نمو وتطور مجموعة القصور المجاورة لها، والتي هي أكبرها، بقد ارتبطت هذه المدن في تطويرها ونموها بالحركة التجارية الكثيفة لورقلة، كما وظفت هذه القصور، ما تحتويه من طاقات ومن يد متخصصة، وأخذت حصة من العمل، الذي يحتاجه النشاط التجاري الورقلي في ميدان الإنتاج والتوزيع وفي ميدان الخدمات. إن ورقلة لم تكن في يوم من الأيام مدينة منفردة بمهمة محددة، فهي الجزء الظاهر من قطعة الجليد بينما قصورها وقراها المنتشرة كانت هي الأجزاء الخفية منه.

لقد لعبت ورقلة دور المركز التجاري الضخم، ذو الشهرة العالمية مدة طويلة من الزمن، لكنها مع هذا الدور الذي أجادته لعبت أدورا هامة أخرى سياسية، دينية وتعلمية (أبيش يوسف، 121)، لكن الدور الذي خصصنا له بحثنا هو دورها التجاري.

إن ورقلة رغم احتكارها لتجارة التصدير والاستيراد، كانت سوقا جهوية نشطة (ROUVILLOIS. M, PARIS, 1875) ، يقصدها أهل مدن وقرى الناحية لبيع فائض منتوجاتهم الزراعية والحرفية، ولاقتناء بعض ما يحتاجونه من أسواق المدينة وللاستفادة من الخدمات التي تقدم في ميادين عديدة، كميدان العلاج والتعليم والقضاء... الخ.

إن أهل الريف الذين يردون ورقلة، عادة ما يكتفون باتخاذ ساحة خارج حد أبوابها، كسوق كما جرت العادة في القصور الصحراوية، علما أن الكثير من البدو يزورون المدينة بصفة منتظمة لتسويق إنتاجهم وشراء حاجياتهم، من فواكه وخضر وحبوب وبعض المواد المصنعة. فالسوق الأسبوعية أو الموسمية جرت العادة أن تقام في المغرب الإسلامي، خارج أسوار أو قرب أبوابها (عمرو بن خليفة النامي، 1977، 14- 23). هذه السوق التي تباع فيها

منتوجات الريف، من خشب وحطب وفحم وخضروات وفواكه وأنعام وحيوانات ودواجن ولحوم وأصواف...الخ. هذا ما وجد في القيروان وفاس وتونس (لقد ساهمت مشاغل الحرفيين، في تزويد الريف بأدوات وآلات عديدة يحتاجها في العمل الزراعي وغيره). إن تموقع هذه الأسواق خارج مدينة ورقلة يعود إلى أسباب أهمها:

1. كون المساحة، كانت مشغولة بالعمران وأن مثل هذه الأسواق تحتاج إلى أمكنة واسعة. فهذه الأسواق أمكنة خالية من البناءات شاسعة المساحة، يلتقي فيها القصر بأهل البادية وأهل الواحة لتبادل المنفعة، ويكون هذا المكان سهل الدخول والخروج، قليل الزحام يصله عادة عدد كبير من الناس والدواب.
2. إن كون ساحة السوق خارج أسوار المدينة، وقرب أبوابها، يزيد من ثقة البدو، فهم لا يدخلون المدينة ولا يحسون بحصار أسوارها، ولا بسلطان أميرها، وسيف صاحب شرطها، وبطش صاحب خراجها.

ووجود مثل هذا السوق للمواد البدوية والفلاحية خارج السور وبقرب أبوابه، يعطي الأمان للحضري فهم قرب أهليهم وسلطانهم، وهم في نفس الوقت لشرهم، خاصة أن بعض القبائل البدوية المسيطرة على الصحراء، بضواحي المدينة لها أطماع فلو تمكنت من الدخول إلى المدينة لسيطرت عليها. لقد ساهمت أسواق ورقلة في تحديث الريف وتنشيطه، وسمحت لفلاحي المنطقة من دخول اقتصاد السوق والاختصاص في ميادين معينة من الإنتاج والخروج من الزراعة المعيشية الضيقة.(أنظر الخريطة رقم 1).

ورقلة الرستمية:

امتد سلطان الرستميين على رقعة شاسعة من المغرب الإسلامي (هذا ما لاحظناه عند زيارتنا الاستكشافية للقصور الصحراوية،...، 1970، 43). اتفق

بعض المؤرخين من الخوارج على تضخيمها، فجعلوها من سرت إلى تلمسان، بينما قزمها بعض المؤرخين من المذاهب الأخرى، وجعلوا تاهرت ضمن الدولة الإدرسية، كما فعل ابن رسته في الأعلاف النفسية، وجعلها ابن أبي دينار ضمن الدولة الأغلبية، حيث يقول إن الدولة الأغلبية امتدت إلى بلاد السوس والحق هو وسط بين ما ذكره المؤرخون الخوارج وبين ما قاله الفريق الآخر (أنظر الخريطة رقم 2).

فالإمارة الرستمية، شملت مناطق واسعة من المغرب الأوسط (LETOURNEAU. R, AlGER, 1957) ، باستثناء بعض المناطق، التي كانت تسطير عليها إمارت علوية أو إمارة إباضية، لم تعترف بالدولة الرستمية. أما في إفريقية، فقد امتدت الإمارة بصفة متقطعة من الأوراس إلى الجريد إلى منطقة طرابلس (AROUF. N, PARIS, 1980). وشملت مناطق واسعة من شمال الصحراء، والذي يهم بحثنا، أن هذه الدولة كانت تسيطر على الواحات الشرقية للجزائر، بما فيها واحة ورقلة وتوقرت (RAGON. M, 1975). إن سكان الواحة كانوا من الإباضيين الذين يدينون الولاء للأئمة الرستميين، وقد استقبلوا، كما هو معروف، آخر الأئمة الرستميين الهارب من الفاطميين، بعد استلائهم على تاهرت أحسن استقبال وقدموا له ولا يتهم فرفضها.

لم تركز المصادر بما فيه الكفاية، على تبعية المدينة للدولة الرستمية، وربما رجع ذلك لاهتمامهم الزائد بالنشاط التجاري للمدينة دون غيره، فشد أنظارهم بريق الذهب، واهتموا به دون غيره. والأمر راجع أيضا إلى كون الدولة الرستمية، دولة اعتمدت على التبعية العقائدية والرضوخ للإمامة، وهي دولة نظمت تنظيما لا مركزيا على الطريقة البربرية القبلية، وقد أعطت صلاحيات واسعة لأهل المدن والأقاليم لتسير شؤونهم (ZEROUKI. B, 1957) لقد عملت الدولة الرستمية، على تقوية مركز ورقلة التجاري، لأنها كانت القاعدة الرئيسية لعبور تجارتها نحو بلاد السودان الغربي، ولوصول تجارة السودان إليها. ونجد عند المؤرخ ابن

الصغير، الذي عاش بتاهرت، إشارة واضحة إلى هذا الموضوع، حيث يقول أن الإمام عبد الرحمن ابن رستم، كان أول من مهد الطريق إلى بلاد السودان. ويشير نفس المصدر، أن الإمام أفلح، أرسل محمد بن عرفة بهدية إلى ملك السودان (*)، فأحسن محمد السفارة ونجح في المهمة على أحسن حال. وكل هذا يشير إلى أن العلاقات كانت وطيدة، وأن الرستميين كانوا على اتصال مستمر بممالك الزنج، وقد اعتمدوا في توطيد علاقاتهم بهذه المنطقة الغنية بالموارد الطبيعية على طريقتين هامين هما طريق سجلماسة وطريق ورقلة (MARCAIS.G, 174)، علما أن سجلماسة (منطقة طرابلس دون المدينة إلى كانت فيها حامية أغالبية قوية) كانت عاصمة بني مدرار، وكان الوصول إليها يتطلب من قوافل تاهرت الدخول لهذه الإمارة.

المسالك الكبرى للتجارة الدولية في الصحراء:

في نهاية القرن الثامن للميلاد، نشطت العديد من المسالك الهامة العابرة للصحراء وقد وصف هذه المسالك الجغرافيون العرب (في القرن التاسع والعاشر). لقد استعملت بعض هذه الطرق حسب ديموقو Demougeot، منذ العصور القديمة. فمنذ العهد الروماني، استعملت بعض هذه المسالك كمسلك طرابلس، غدامس والسودان الغربي. أما المؤرخ البرلوني الكبير ليويكي، فيرى أن شعوب المنطقة، كانت لهم اتصالات ببلاد الزنج منذ عهود بعيدة (جودت عبد الكريم يوسف، 266). أما في العهد الإسلامي، فقد ظهر الاهتمام والبحث عن المسالك لتسهيل الوصول إلى إفريقيا جنوب الصحراء مبكرا، وتذكر المصادر أن ابن الحبحاب، هو أول من حاول الدخول للصحراء باتجاه بلاد السودان الغربي عندما أرسل حبيب بن عبيدة غازيا إلى السوس الأقصى (ابن صغير، 1905). وقد تمكن هذا القائد، حسب العديد من المصادر من الوصول إلى أرض السودان الغربي. علما أن هذا الأخير قد تمكن من تأمين هذا المسلك، وتمهيده بعد أن حفر عددا من الآبار، في مناطق وجود المياه، مما يسهل فيما بعد مرور القوافل بهذه الطرق (جودت عبد الكريم يوسف،

248) إن ظهور الدولة الرستمية على الساحة المغربية أكد الاتصال بإفريقيا الغربية (SOLAL. E، 1984) وزاد منه. وكان توجه تاهرت إلى هذه التجارة كثيرة الربح أمرا طبيعيا. ففي الصحراء الشمالية الشرقية الإباضية الرستمية، توجد أهم مراكز هذه التجارة وعلى رأسها ورقلة (SOLAL. E، 1984). لقد أضحت ورقلة مركزا تجاريا هاما، وتدرب سكانها على تقنيات هذه التجارة، فاتسعت أفاقهم، واطلعوا على الدول، منها، لتمكن من السير في الصحراء كالفلك (DEMOUGEOT, 1960). لقد كانت مدينة ورقلة، قبلة التجار من المغرب والمشرق، لما تدره تجارتها من فائدة كبيرة. ورغم أن المدينة تقع في صحراء، فالمياه متوفرة بكثرة في المدينة، لكونها ترقد على خزان هائل من المياه الجوفية، مما سيرشحها للعب دورها المعروف، كعاصمة لواحة من أخصب واحات الصحراء الشرقية، واحد المراكز الكبيرة لتجمع القوافل التجارية العابرة لها، إن أهل ورقلة لم يكتفوا بالخدمات المقدمة للقوافل، بل ساهموا فيها مساهمة نشطة.

الطريق من ورقلة إلى بلاد غرب إفريقيا:

يشق هذا الطريق المناطق الصحراوية الجافة (قليلة المياه والكلأ)، وصفها الإصطخري، بقوله: " إن بين بلاد المغرب والسودان مفاوز منقطعة (LEWICKI, T, 532, 1961/2) لا تسلك إلا في مواضع محددة "، ويذكر آخرون، أن هذه الطريق لا تسلك إلا على مياه معروفة، ويذكر آخرون، انه على هذه الطريق، توجد أشجار عظيمة مجوفة تجمع المياه بداخلها، فيشربها المسافرون والتجار عند المرور بهذه المناطق، وهذه الشجرة هي شجرة البواباب (Boabab)، المشهورة في مناطق السفانا، والتي تخزن بداخلها، وفي جذعها كميات هائلة من المياه، لتستعملها عند حلول الجفاف، لكن الراجح أن القوافل كانت تحمل على الذوق عددا كبيرا من القرب المملوءة بالمياه وهكذا دواليك، ولا شك أن قلة الماء في هذه المناطق الصحراوية، ألزمت التجار تخصيص عددا كبيرا من الإبل لحمل المياه. وتشير المصادر أنه قد يلجأ التجار في حالة انتهاء مخزونهم من مياه، إلى ذبح بعض

الجمال وشرب ما تختزنه من مياه وسوائل بداخلها، (ذلك أنهم كانوا في العادة يعطشون بعض الإبل قبل ورودها في مصادر المياه).

وفضلا عن ذلك فالمصادر التاريخية تشير، أن القوافل المتجهة من بلاد المغرب إلى السودان، كانت تحمل معها ميرتها بقدر معلوم، يكفيها ذهابا وإيابا، ونجد في بعضها، الحديث عن مخزون يكفي مدة ستة أشهر (من حبوب جافة والتمور وفواكه المجففة). كما أن أهل القافلة، كانوا يشترون كل ما يحتاجونه من أغذية إن توفر ذلك في المناطق التي يمرون بها.

وهكذا كان على أصحاب القوافل، حمل كل ما يحتاجونه من الأغطية لشدة البرودة في الليل، بالإضافة إلى الخيم والرقع، لتوفير الظل عند شدة الحرارة وقت الهجير (CHEIK BEKRI, 103). وكان عليهم أيضا حراسة تجارتهم من الذعار وقطاع الطرق، بأن يكونوا مسلحين، وبأن يعتمدوا على حماية بعض القبائل، مقابل قيمة معلومة من الدراهم أو السلع (F, de la chapelle, 53). وقد رصدت لنا المصادر التاريخية بعض أسماء القبائل الصنهاجية القاطنة في بعض مناطق الصحراء، وتذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، بطون لمتونه وأبجفة ومسوفة وجدالة (جودت عبد الكريم يوسف، 234). وكانت صنهاجة تسيطر على المناطق الصحراوية الواسعة، الموجودة بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي (SOLAL, E, 44) (أنظر الخريطة رقم 3).

وقد استعمل الجمل بصفته سفينة الصحراء لدخولها (بعض مبادئ علم الفلك التي تمكنهم من أن يهتدوا في الصحراء). وكان هذا الأخير يمتاز بميزات عديدة، منها تحمله للعطش لمدة طويلة، صبره على الجوع، تأقلمه مع حرارة الصحراء وجفافها وشدة بردها ليلا، واكتفاءه ببعض النباتات الصحراوية الهزيلة التي لا ترعاها الخيول والبغال والحمير. ثم أن الجمل باستطاعته حمل أثقال كبيرة، وقطع مسافات طويلة على الرمال الحارة، وهو محمل.

وكانت القوافل كثيرة العدد، قد تفوق إبلها والألف ربما الألفين، وتذكر المصادر أن التاجر قد يجهز السبعون أو المئة جمل (اصطحزي، 1381/ 1961). إن السير في الصحراء عمل شاق، لذلك وضعت قواعد تنظمه، وتوجب على من يريد النجاح في مهمته احترمها. وتكون رحلة القوافل عادة في الشهور المعتدلة من السنة (جودت عبد الكريم يوسف، 254) (أيمن أكتوبر لأفريل). وعادة ما تسير مع غروب الشمس وتزيد في سرعتها في آخر الليل، فإذا طلعت الشمس وبدأت أشعتها تقوى، ضربت الخيام واستراح الناس في ظلالها، وربطت البعير في أماكن الظل إن وجدت (ابن حوقل، 98).

وكانت القوافل تعتمد في معرفة طريقها، في هذه الفيافي على تجارب أهل المنطقة، بأن تعتمد بعضهم كمرشدين، وأن تأخذ بعض الجبال والوديان كشواهد تدلهم على الطريق، وقد يعتمد بعضهم على التغيرات التي تطرأ على طبيعة الأرض، من رمال حمراء إلى صفراء، من حصى إلى الصخر، وقد يعتمد أيضا لمعرفة الطريق على صورة الغطاء النباتي، وقد تستعمل النجوم إذا كان الجو صافيا.

الطريق من ورقلة إلى السودان:

إن لورقلة أهمية قصوى، في هذه الحقبة من الزمان، في التجارة مع السودان، فهي تضاهي في أهميتها التجارية عاصمة بني مدرار سجلماسة (ابن خلدون، 310- 311). مما جعل الجغرافيين يصفونها، بكونها مدينة يعيش أهلها على التجارة مع السودان، فيجلبون منه الذهب، ويضربوه دنانير في بلادهم. وكانت القوافل حسب الجغرافيين، تخرج من ورقلة متجهة إلى تدمكة مرورا بمنطقة أدرار أفوكاس. وكانت مدينة تادمكة (جودت عبد الكريم يوسف، 255) مزدهرة اقتصاديا، وقد ساعدها موقعها على منحنى نهر النيجر، الذي كان يستعمل منه لشحن البضائع، لتصبح مركزا هاما لتجميع المنتوجات الإفريقية.

إن جغرافية إفريقيا الغربية، كانت مجهولة عند المؤرخين والجغرافيين الأوائل، الذين اهتموا بتجارة العالم الإسلامي معها. فأودغوست التي كانت شهرتها تضاهي مدينة ورقلة أو سجلماسة، لم يحدد مؤلف مثل العزيري حتى موقعها، بل إن اليعقوبي وخرذابيه لم يذكرها أصلا، أما الذين وصفوها فإنهم اكتفوا بوصف عام، كقولهم إنها مدينة لطيفة أشبه بمكة، وإنما مدينة رملية كبيرة تقع بين جبلين. وكانت أودغوست تستمد شهرتها وثراء أهلها (حسن أحمد محمود، 399) من كونها المحطة الأخيرة لتجارة الدولية في جنوب الصحراء، فهي بوابه إفريقيا ومكان تجمع وتخزين لسلعها المختلفة. ويمكن لمن أراد من التجار أن ينهي رحلته فيها لتوفر السلع فيها بكثرة. ويرى بعض المؤرخين (F,de la chapelle, 41- 43) أن هناك من تجار بلاد المغرب، من يكمل الطريق بعد الاستراحة بهذه المدينة، نحو بلاد التبر في غانة وممالكها. وفي مدينة غانة (الإدريسي، 1968، 66)، عاصمة البلاد، يقوم أهل ورقلة وغيرهم ببيع سلعهم وشراء ما يرغبون فيه من بضاعة البلاد والتزود بما يحتاجونه من ميرة وماء الاستراحة، وتغذية دوابهم لتمكن من التغلب على مصاعب طريق العودة. لقد وصف بعض الجغرافيين العرب بلاد غانة، لكن وصف البكري للمدينة يبقى الأحسن والأدق، حيث يقول: " ومدينة غانة مدينتان سهليتان، إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة، فيها اثنا عشر مسجدا، احدهما يجمعون فيه ولها الأئمة والمؤذنون والراقبون وفيها فقهاء وحملة علم وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتمدون الخضروات، ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة ومبانيهم بالحجارة والخشب وسنط، وللملك قصر وقباب، وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور، وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين، على مقربه من مجلس حكم الملك، وحول مدينة الملك قباب وغابات يسكن فيها سحرتهم (شهور الخريف حسب الإدريسي، 31، شهور الشتاء حسب ابن حوقل، 100)، وتراجمه الملك من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه. وبعد وصف واف لصولجان

الملك من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه. وبعد وصف واف لصولجان الملك وفخامة مجلسه، يقول البكري: " ولملكهم على حمار الملح دينار ذهب، في إدخاله للبلد، ودينارين في إخراجه، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل، وعلى حمل الثياب عشرة مثاقيل. وأفضل الذهب ما كان في بلاده في مدينة غيارو وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية أيام، في بلاد معمورة بقبائل السودان مساكن متصلة (الإدريسي، 31). وغانة بلده مستوية غير آهلة، لا يكاد الداخل يسلم من مرض، عند امتلاء زرعهم ويقع الموتان في غربائها عند استحصاد الزرع (Rouvillois Brigol Madleine, PARIS, 1975).

إن ثراء بلاد إفريقية الغربية وغناها وتنوع منتوجاتها (Lewicki, T, 1960)، وانفراد تجار المغرب الإسلامي عموما بهذه التجارة من ورقلة وسجلماسة خصوصا، جعل هذه المدن السودانية ومدن المغرب تعيش مرحلة طويلة من الرخاء.

لم تكن طريق ورقلة- غانة، هي الطريق الوحيد الموصلة إلى إفريقيا، بل تعددت السبل لكن أهمها كان طريق سجلماسة وطريق زويلة (ابن حوقل، 91) ولم تكن تجارة التبر رغم أهميتها هي التجارة الفريدة، مع بلاد السودان، بل كانت ترافقها تبادلات أخرى كتجارة العبيد (البكري، 151)، التي كانت مدينة كوكو أكبر أسواقها (Lewicki, T)، حيث كان أهلها يشترون أعداد كبيرة من العبيد أسري إغارة بعض القبائل الزنجية القوية على القبائل أخرى. وقد أكدت الحفريات، من أسرة نحاسية وسبائك وبعض القلل الخزفية في أماكن مختلفة من هذه البلاد الشاسعة.

وتذكر المصادر التاريخية على أن سبائك النحاس كانت تصدر إلى هذه البلاد، وأن أهل السودان كانوا يستعملون لصباغة ثيابهم التاكوك المغربي، وكانوا يلبسون الثياب المغربية من عمائم وثياب أخرى محببة عند أثريائهم.

وقد ذكرت المصادر أن الحنطة كانت تصدر من بلاد المغرب إلى السودان، وكانت مدينة ورقلة من الأمكنة التي تتجمع فيها كميات من هذا الغذاء. وربما كان يصلها من إنتاج سهول تاهرت الوافر، ومن هذه المدينة تحمل الحنطة إلى أهل زغاوة (AL BEKRI, D, 175) .

وتعود قوافل الورقليين وغيرهم إلى مدينة محملة بالعبيد الذين كانوا يؤخذون كخدم في المغرب، ويصدرون إلى بلاد المشرق والأندلس وقد يتخذون كجند وحرس. وكانت الدروق اللمطية تجلب من هناك وتستعمل في المعارك لخفتها وقساوة جلودها (Ibid, 177).

وقد اشتهرت بلاد السودان ببعض السلع الأخرى كالعاج وريش النعام وجلود بعض الحيوانات كالنمر.

وهكذا فقد تمكنت هذه المدينة الصحراوية، أن تصبح من أكبر المراكز التجارية في المغرب الوسيط. نشطت جهتها وأصبحت المحرك الرئيسي لاقتصاد ناحيتها. لقد تمكنت هذه المدينة ولمدة طويلة من الزمن أن تنمو نموا مطردا وتتسع من الناحية العمرانية معتمدة على مداخليها الكبيرة من أرباح التجارة الدولية.

الإحـــالات:

1. هذا الأرشيف هام جدا للباحث في الآثار وفي العمران، لوجود العديد من المخططات التي وضعه مهندسو (Les Brigades Topographiques) وقد اطلعت على العديد منها.
2. لقد مارس الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والكثير من أصحابه هذه الحرفة.
3. صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ج1، الدول العربية قبل الإسلام النظم البدوية، حياة الرسول والدعوة الإسلامية في مكة. ص 93، وما يتبعه.
4. يظهر أن العديد من هذه القبائل الصحراوية كانت إباضية أو صفرية.
5. B. Zerouki : L'imamat de Tahert, premier Etat musulman du Maghreb, Histoire et perspectives méditerranéennes, l'harmatan, 1987, p.t.l, p. 118 et suite.

6. أنظر أطروحة ملوخي حول سجلماسة.

M. Melouki Sijilmama Thèse de IIIe Cycle en histoire urbaine, Unbaine, Université de Prvence, 1985. Non imprimée.

7. كم هي نسبة المشاركة لليد العاملة الحرفية لثمين للمادة الأولية (أي ما هي زيادة القيمة المضافة)

8. يوسف أبيش، المؤسسات الاقتصادية، بحث نشر في كتاب المدينة، الإسلامية أشرف على النشر ر. ب. سرحت، ترجمة أحمد محمد ثعلب، اليونسكو السيكومور فجر، ص. 121 ويتبع.

9. M. Rouvillois- Brigol, Le pays de Ouargla (Sahara Algérien) Paris, 1875

10. أنظر في هذا الباب، عمرو بن خليفة النامي، ملامح عن الحركة العلمية في ورجلان وضواحيها، منذ انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن 6 هـ، الأصالة، عدد خاص بالملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي بورجلان، ورقلة. 1977، ص. 14- 23.

11. لقد ساهمت مشاغل الحرفيين، في تزويد الرف بأدوات وآلات عديدة يحتاجها في العمل الزراعي وغيره.

12. هذا ما لاحظناه عند زيارتنا الاستكشافية للقصور الصحراوية، مثل قصور تاغيث، بني عباس، وتماسين الخ،... انظر أيضا في هذا الصدد مولاي بلجميسي، مدينة ورقلة في رحلة العياشي مجلة وحضارة المغرب، 1970، ص. 43.

13. R. Letourneau, la ville musulmane d'Afrique du Nord sur le terrain, la maison du livre, Alger, 1957, p. 17

14. N. Marouf, Lecture de l'espace oasien, la Bibliothèque Arabe Sindbad, Paris, 1980, P. 17 et s.

15. M. Ragon, l'homme et les villes, Albin Michel, 1975, p, 116 s.

16. Zerouki. B, op. cité p. 36 et suite.
- Voir aussi, Chikh Bekri, le Kharijisme Berbére, quelques aspects du royaume Rustamide, in A.I. E.O. 1957, P 55-109.

17. Marcais. G, Dessus Lamare, Tihert Tagdmet, mélange d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman t, 1 p. 174.

18. منطقة طرابلس دون المدينة إلى كانت فيها حامية أغلبية قوية.

19. جودت عبد الكريم يوسف: المصدر السابق، ص. 266.

Vonderheden. M, la Berbérie orientale sous la dynastic des Benou Arglab, 800-909, J. C, Librairie orientaliste, paul Genthneur, Paris, 1927 P. 40 à 57.

20. ابن صغير: سيرة الأئمة الرستميين/ أعمال المؤتمر الرابع للمستشرقين، المنعقد بالجزائر، سنة 1905، نشر مونيلنسكي، باريس، 1908 ص. 31، انظر على مدى أهمية شهادات ابن

الصغير في تاريخ الرستميين، د. وداد القاضي، ابن صغير مؤرخ الدولة الرستمية: لأصالة ماي 1975 ص 37- 59.

21. جودت عبد الكريم يوسف، المصدر نفسه ص 248.
22. Solal. E, les Ibadites en Afrique, D. E.A, Archéologie Aix en Provence, 1984 p. 42.
23. Demougeot, Le chameau dans l'Afrique du Nord romaine, Annales, 1960, t. II et IX, Paris, 1960, p. 150- 223.
24. Lewicki. T " L'Etat nord africain de Tahert et ses relations avec le soudan occidental, Cahiers d'études africaines, 1961/2, p. 532.

Voir aussi, F. de la chapelle, Esquisse d'une histoire du Sahara occidental, Hespéris, 1930, pp. 55 à 57.

25. Cheik Bekri, op, cit p. 103 et s.
26. F de la chapelle op. Cité. P. 53
27. جودت عبد الكريم يوسف، المرجع نفسه، 234.
28. E. Solal, op, cit p. 44.
29. بعض مبادئ علم الفلك التي تمكنهم من ان يهتدوا في الصحراء.
30. اصطحزي: المسالك و الممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحمي، دار الفكر، القاهرة سنة 1381/ 1961.
31. جودت عبد الكريم يوسف: المصدر السابق، ص. 254.
32. ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ص 98.
33. ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتداء والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب البناني للطباعة والنشر، بيروت، ص. 310- 311.
34. جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص. 255.
35. حسن أحمد محمود، قيام الدولة المرابطية، صفحة مشرفة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي ص 399.
36. Voir sur ce sujet: F. de la Chapelle, op. cité. Pp. 41- 43.
37. الإدريسي صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مطبعة بريل، لين سنة، 1968 ص 66.
38. شهور الخريف حسب الإدريسي المصدر السابق، ص 31، شهور الشتاء حسب ابن حوقل، صورة الأرض، ص 100
39. الإدريسي، المصدر السابق، ص 31.
40. Madeleine Rouvillois Brigol, le pays d'Ouargla, Sahara Algérien, variations et organisation d'un espace rural en milieu désertique, paris, 1975, P 4.

41. Lewicki. T, Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibadites nord africain au pays du soudan occidental et central du Moyen Age. in follis ou orientalia, t. II Cracovie 1960 P4.

42. ابن حوقل المصدر السابق، ص 91.

43. البكري المصدر السابق، ص 151.

44. Lewicki, T, op. cit. p 15.

45. Al Bekri, Description de l'Afrique septentrionale, Paris, p175.

46. Ibid P 176.

47. Ibid, P 177.

48. Solal. E, op. cité; p.

49. Lewicki. T, op. cité; P. 526 et suite.

50. جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 27.

51. الإدريسي، المصدر السابق، ص 9.

52. Lewicki. T. op. cit, P 10 et suite.

53. الإدريسي المصدر السابق، ص 35.

54. Djait. H, Talbi. M, Darchaoui. F, Douib. A, Histoire de la Tunisie, le Moyen Age, S. t. d, Tunis, P 111.

55. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 91.

56. Sur les produits africains voir, Emerit. M, les liaisons terrestres entre le soudan et l'Afrque de Nord au XVIIe XIXe, Siècle, T.I.E.S. 1954, p. 33 et s.